

محاضرة في مادة الشخصية وعملياتها العقلية

لطلاب السنة الأولى فلسفة فصل ثاني للعام
الدراسي 2019/2020

بعنوان: "

في ماهية (طبيعة) الشخصية والعوامل المؤثرة
فيها وأهم النظريات ومدارس علم النفس التي
تناولتها بالدراسة والتحليل "(المحاضرة الأولى
(.

محاضرة إلكترونية كتعويض لما قد يفوت
الطلاب من محاضرات بسبب إيقاف الدوام
بشكل مؤقت بدواعي الحيلة من فيروس
الكورونا.

حماكم الله من كل سوء ومن كل مرض.
أعزائي الطلاب والطالبات...تحية طيبة...!

يمكن تعريف الشخصية على أنها جماع السمات والخواص النوعية المحددة جسديا وعقليا ونفسيا واجتماعيا والتي تعمل على تمييز شخص عن آخر، والتي تكونت بفعل عوامل متعددة منها ما يعود إلى الوراثة ومنها ما يعود إلى البيئة والمجتمع الذي يعيش فيه الفرد

فالشخصية اذن هي تجسيد واقعي للسمات المحددة اجتماعيا وعقليا وعاطفيا شعوريا... الخ، والتي يتكون منها النمط الإنساني وتتبدى في التصرف والسلوك الفردي.

والأنا (Ego) أو الذات هي الحامل الحقيقي لصفات الشخصية

وتفردتها وتميزها عن بقية الذوات الموجودة في الوسط الاجتماعي الذي تعيش فيه.

فالأنا هي الحامل المستقل للقدرات النفسية والعقلية (الروحية) والجسدية.

وقد حظيت هذه الأنا باهتمام الفلاسفة وعلماء
النفس على مر التاريخ، فمنهم من نظر إليها
نظرة علمية موضوعية، ومنهم من نظر إليها
نظرة مثالية سواء أكانت ذاتية أم موضوعية.

ومن الفلاسفة الذين حظيت عندهم الأنا والذات العارفة باهتمام خاص نذكر على سبيل المثال وليس الحصر: الفيلسوف الفرنسي المحدث "رينيه ديكارت" الذي نظر إلى الأنا في الكوجيتو (أنا أفكر... إذن أنا موجود) كجوهر مفكر غير مادي ومستقل عن الجوهر المادي الجسدي الممتد والذي لا يفكر، والفيلسوف الإنجليزي المحدث "ديفيد هيوم"، (الذي كان يرفض من الأساس اية فكرة عن الجوهر لاعتباره، بالنسبة اليه، غير موجود لأنه غير معطى لنا في التجربة والخبرة عبر الحواس)، التي ردها (أي الأنا) إلى حزمة من الإدراكات الحسية، كما وضع الفيلسوف الألماني المثالي الذاتي المحدث "امانويل كانط" الأنا "الخالصة" (المحضة او المتعالية-Transcendental) في مقابل الأنا "التجريبية" الفردية،

معتبراً إياها الوحدة الكلية الصورية للإدراك
المتميز وحامل الأمر المطلق، واعتبر الفيلسوف
"فيخته"، (زعيم المثالية الكلاسيكية الألمانية بعد
كانط)، الأنا المبدأ الخلاق المطلق
الذي يطرح نفسه والوجود جميعه على
أنهما "الأنأ" الخاص به. أما الفيلسوف
الألماني "هيغل"، (وهو أيضاً رائد الفلسفة
الكلاسيكية الألمانية بعد "شيلينغ")، باعتبار
فيلسوفاً مثالياً موضوعياً فقد دحض جميع هذه
المحاولات التي تأخذ "الأنأ"
على أنها "البداية"، وحاول أن يشرح لنا على أنها
وحدة محض للوعي الذاتي الموضوعي.
ويوجد تجسيد متطرف للأنأ في الفلسفة الوضعية
والفلسفة الوجودية وبقية تيارات المثالية الذاتية
المعاصرة التي انتهت

بالأنا إلى الانانية (Solipsism) والانانية (Egoism).

وقد أضفى فرويد (وهو عالم نفس و طبيب
نمساوي) طابعا بيولوجيا على الإنسان، وقسمه
إلى "ال هو" أو اللاشعور (Id), والأنا "Ego"
(أي ساحة الشعور و"الأنا الأعلى")
(Super-Ego)

اي الرقيب الاجتماعي الموجود داخل الفرد ذاته.

وأغلب هذه المحاولات السابقة في تفسير الأنا
انطلقت من التفسير اللاعقلي واللاعلمي
للأنا، لأن جوهر الأنا يكمن في العلاقات
الاجتماعية وفي المجتمع، (اي العامل البيئي
بالدرجة الاولى)، إلى جانب العامل الوراثي
بالطبع، ذلك لأن الانسان الفرد يتوج تطور
الطبيعة ككل، لا لشيء سوى أنه الخالق الوحيد
لعلاقاته الاجتماعية ولحضارته المادية والروحية
كلها

والشخصية الانسانية عندما تشذ عن سويتها
تصل إلى درجة الأنانية التي تنعكس سلوكا
متعاليا ونفعية في التعامل مع الآخرين. وهي
لذلك ترتبط ارتباطا قويا بالنزعة الفردية
المتطرفة. وقد حاول الفيلسوف الألماني
"شتيرنر" أن يجد تبريرا "علميا" لصفة الأنانية
في الشخصية الفردية. ففي عام 1844 نشر
كتابه "الفردية والخاص" الذي اعتبر
فيه "الأنا"، الذات الحقيقية الوحيدة، والعالم كله من
امتلاكها.

لذلك عمل شتيرنر على تنحية الأخلاق والعدالة
والقانون جانبا، معتبرا انهم امور "وهمية" و"قشرة
ضاغطة".

فكل فرد عند شتيرنر هو نفسه مصدر الأخلاق
والعدالة.

ونظر شتيرنر إلى الملكية الخاصة باعتبار
 وجوب المحافظة عليها لأن شخصية وذاتية الأنا
 ماثلة فيها. والمثال الاجتماعي عنده هو وحدة
 الأنواع، حيث لا يرى كل شخص في الآخر
 سوى وسيلة لتحقيق غاياته الشخصية.
 والتاريخ كله عند شتيرنر من صنع الأفراد
 المميزين، وهذا الفهم المثالي عنده لدور الفرد في
 التاريخ يقود إلى النخبوية وعبادة الشخصية
 والفرد.

وعليه، إذا أردنا الحصول على نتائج علمية موضوعية في دراسة الشخصية بعيدا عن النظرة المثالية والغير علمية علينا أن نتناول الدراسة فيها بدقة وحياد موضوعي يضع في الاعتبار تفاعل وتكامل عاملي الوراثة والبيئة فيها، والأخذ في الحسبان احتمالية ونسبية النتائج لأن الباحث هنا لا يستطيع تحقيق الموضوعية المطلقة وعدم الوقوع تحت تأثير العوامل الذاتية، على اعتبار أن الباحث في العلوم الإنسانية هو الذات العارفة وموضوع المعرفة في نفس الوقت بخلاف العلوم الدقيقة المضبوطة النتائج والتي تحقق صفة الضرورة والحتمية والموضوعية في نتائجها وقوانينها.

ان المبالغة في النظر إلى مزايا الشخصية يقود إلى التقدير الغير علمي والغير موضوعي لمزايا الشخصية، كما ينتج عنها تفسير مثالي لأحداث التاريخ، ينظر من خلاله للتاريخ على أنه سيرورة تحددتها رغبات وإرادة الرجال العظام والابطال والقادة والمفكرين البارزين أكثر مما تحددتها القوانين الموضوعية او نشاط الجماهير والمجتمع. ولكن الحقيقة تثبت العكس، إذ لا يمكن الاستعاضة عن خبرة الملايين بخبرة شخص مهما بلغت درجة عظمتة.

وممن اخذوا بفكرة عبادة الفرد والشخصية المميزة في التاريخ نذكر الفيلسوف والمؤرخ الايطالي "توماس كارلايل"

(1795-1881)، الذي طبق على المجتمع
 نظرية الفيلسوف الألماني المثالي الذاتي "فيخته"
 عن نشاط الإنسان باعتباره العنصر الخلاق في
 العالم والخالق له. ومن هنا فإنه يحيل تاريخ
 المجتمع إلى سير الشخصيات العظيمة وعبادة
 البطل.

من أهم أعماله: "سيرة ذاتية" (1834)
 (، و"الأبطال وعبادة البطل والبطولي في
 التاريخ" (1840).

وبناء عليه، وبالرغم من هذه الآراء المتناقضة بخصوص وجهات النظر إلى الفرد والشخصية، التي تنوعت بين وجهات نظر علمية موضوعية ومثالية غير علمية وصلت إلى حد التناقض الظاهر بينها، يمكننا أن نقول أن الشخصية هي كيان إنساني يحمل صفات جسدية ونفسية وعقلية واجتماعية وعاطفية.. الخ، معبر عنها فردياً ومحددة اجتماعياً.

وبما أن الفرد هو كائن اجتماعي بالدرجة الأولى لذلك لا يمكن له أن يكون الحامل للخصائص الموروثة بقدر ما يكون محدداً في النهاية بنظام اجتماعي له تاريخ معين، وهو ما نقصد به هنا بعامل البيئة.

وعلم النفس يعرف الفرد (الشخصية) على أنه كائن إنساني منفصل بالخواص الفردية الكامنة لشخصيته وعقله وتكوينه الانفعالي. وتشمل الصفات النفسية للفرد: الطبع والمزاج والقدرات وكذلك السمات الخاصة لعملياته الذهنية. ورغم أن الظروف النفسية، (الخبرات الانفعالية، والدوافع السلوكية.. الخ)، تتغير باستمرار فإن التكوين النفسي للفرد يظل ثابتاً ومستقراً نسبياً، ويتوقف هذا على الاستقرار النسبي لظروف حياته والخواص النمطية لجهازه العصبي الخاص.

وتنشأ التغيرات في التكوين النفسي للفرد عن التغيرات التي تطرأ على حياته بفعل عملية التربية الاجتماعية.

والفرد بهذا المعنى هو المجل الكلي للسمات والخصائص الكامنة لكائن انساني، التي من خلالها تعمل التأثيرات الخارجية. وأفعال الفرد تحركها متطلباته الشخصية والاجتماعية. والعنصر الذاتي في الفرد (الخبرات الانفعالية والشعور والحاجات) لا ينفصل عن العلاقات الموضوعية التي تتكون بين الفرد وبيئته.

ومن المدارس النفسية ذات النزعة السيكلوجية في دراسة شخصية الإنسان والعوامل المؤثرة فيها وفي توجهها المستقبلي نذكر مدرسة التحليل النفسي ومنهج الذي أسسها "سيغموند فرويد" عالم النفس والطبيب النمساوي (1856-1939) الذي ترك وراءه مدرسة عمل على تطويرها بعده علماء نفس آخرين وتدعى بالفرودية.

لقد ركز "فرويد" في نظرية التحليل النفسي على مرحلة الطفولة الاولى التي يمر بها الفرد قبل بلوغه وهو لا يزال في سن الطفولة، نظرا لحيوية هذه المرحلة باعتبارها تشكل مركز تجمع العقد النفسية والصراعات في طبقة اللاشعور، بعد أن تحولت الرغبات والدوافع لدى الطفل والمنطلقة للإشباع في العالم الخارجي نتيجة الكبت والقمع الاجتماعي إلى عقد نفسية وغرائز مكبوتة وخاصة فيما يتعلق بالغريزة الجنسية أو الطاقة الغريزية الحيوية التي أطلق عليها اسم (الليبيدو).

لقد قسم فرويد النفس الإنسانية إلى ثلاث طبقات هي: **الهو** أو **اللاشعور** (Id)، **والأنا** أو **مساحة الشعور** (Ego) **والأنا الأعلى** أو **الرقيب الاجتماعي** داخل الفرد (Super-Ego).

لقد رفض فرويد محاولات تفسير التغيرات في
 الأفعال العقلية بأسباب مادية فسيولوجية، ومع
 ذلك أنكر المناهج الموضوعية لدراسة النشاط
 العقلي، ووضع نظرية ذاتية تعسفية، تفصل بين
 النشاط العقلي والظروف المادية والأسباب التي
 تؤدي إلى هذا النشاط العقلي.

ينظر فرويد إلى النشاط العقلي على أنه شيء
 مستقل يوجد جنباً إلى جنب مع العمليات المادية
 ،(وفق نظرية التوازي النفسي-الجسمي
)وتحكمها قوة نفسية خاصة مجهولة خالدة تكمن
 وراء الشعور، أي في طبقة ما تحت الشعور
 وطبقة اللاشعور ذاتها.

ويرى فرويد أن صراعات عقلية ثابتة
تسيطر-كالقدر-على نفس الإنسان،بين الحافز
اللاشعوري نحو اللذة(اللذة الجنسية فوق كل
شيء) ونحو العدوان و "مبدأ الواقع"الذي يتكيف
العقل معه.ويخضع فرويد جميع الأحوال العقلية
وجميع أفعال الإنسان وحتى الأحداث التاريخية
والظواهر الاجتماعية للتحليل النفسي بمعنى أنه
يفسرها على أنها مظاهر الحوافز اللاشعورية
الجنسية أساسا.ومن ثم فإن المثل الأعلى-النفسي
(وفوق كل شيء"الهو"المجهول-أي اللاشعور
)يعتبر سبب تاريخ الجنس البشري والأخلاقيات
والفن والعلم والدين والدولة والقانون
والحروب،وهكذا.

وقد حافظ فرويدون الجدد-أصحاب
مدرسة"التحليل النفسي
الحضاري"(ك. هورني، أ. كاردينر، ف. الكسندر،
أ. فروم)

على الخط المثالي الأساسي "لفرويد" دون
مساس، ولم ينتقدوا سوى الاتجاه لرؤية تيار
تحتي جنسي في كل ظواهر الحياة
الانسانية، وبعض الملامح الجوهرية المنهجية
الأخرى الفرويدية التقليدية.
مما تقدم سابقا حول مفاهيم الشخصية وصراع
النظريات في فهمها الذي وصل في حالات
كثيرة إلى حد التناقض بينها في مجال تناول
الشخصية والفرد بالدراسة والتحليل، نستطيع أن
نؤكد على تكامل وتفاعل دور الوراثة والبيئة في
تشكيل الشخصية ونموها.

البيئة تشكل مجموع الأشياء والظواهر ذات الطبيعة الحية والغير حية، من وسط جغرافي واجتماعي يعيش فيه الإنسان، يؤثر فيها ويتأثر بها لأنها تشكل بالنسبة إليه الوسط البيئي الموضوعي اللازم له في وجوده ونموه وتطوره.

وتلعب البيئة بمفهومها الجغرافي والاجتماعي دوراً هاماً في حياة الفرد والشخصية، ففيها تتشكل العوامل المساعدة على تطور الشخصية أو المعيقة لها، وفقاً لنمط المجتمع الذي يعيش فيه الفرد وثقافته ودرجة تطوره.

وفي جميع الأحوال يحاول الفرد تنظيم حياته العقلية والعاطفية والاجتماعية.. الخ، بما يتلائم مع المجتمع الذي يعيش فيه، وفي حالات كثيرة قد لا يحصل هذا التلائم فتتحول معه دوافع الفرد وحاجاته المتنوعة إلى عقد نفسية أو عصابية، حسب درجة شدتها بفعل الكبت الذي يتمثل بسلطة المجتمع والأنا الأعلى باعتباره قوة وسلطة قاهرة لا يستطيع الفرد مقاومتها فينطوي على ذاته ويشعر بالانعزال والاستلاب والقهر والاعترا ب، أو قد يتطور المرض النفسي عنده لاحقاً فيتحول إلى سلوك مرضي عصابي وذهاني مع ما يرافقه من هلوسة ووسواس ضاغط وانفصام في الشخصية.

أما فيما يتعلق بالوراثة ودورها في تشكيل الشخصية ونموها فهي الأخرى تلعب دورا بارزا في تشكيل الشخصية، منها ما يمكن وصفه بعوامل سلبية وأخرى إيجابية وفق المورثات القادمة من الأهل والبيئة التي تساعد أو تعيق عملية تشكيلها وتطورها.

فالوراثة هي إذن مقدرة الكائنات العضوية الحية (ومنها الجنس البشري) على نقل الخصائص والصفات الى نسلها وتوريثها اياها. وقد نشأت هذه المقدرة وتطورت خلال عملية التطور البيولوجي التي استغرقت وقتاً طويلاً جداً ضمن شروط وظروف محددة كانت متوفرة أثناء نشوئها وارتقائها، ويمكننا فهم بعض مجريات هذه العملية بطريقة علمية بالرجوع إلى نظرية النشوء والارتقاء التي وضعها الفيلسوف الانكليزي وعالم الطبيعة والأحياء "دارون"، وعرضها في كتابه: "أصل الأنواع".

ويتوقف انتقال الخصائص الوراثية، في حالة الحيوانات العليا على الحالة الجنسية وحدها. وتتسأ التغيرات في وراثة الكائنات العضوية عن تأثير البيئة.

وتسمى هذه التغيرات الطفرات، بحيث تؤدي الطفرات الضارة إلى موت الكائن العضوي، أما الطفرات المفيدة فيدعمها الانتخاب الطبيعي. والطفرة والانتخاب الطبيعي هما العاملان الرئيسيان في التطور البيولوجي، الذي أسفر عن الأنواع المعاصرة من الكائنات العضوية. وقد اكتشفت البيولوجيا الحديثة أن الجواهر-التي تكون جزئياتها ثابتة بدرجة كافية والتي تجدد وتنظم تركيب البروتين-يمكن أن تكون حوامل مادية للوراثة. وتمتلك جزيئات أحماض الخلايا النووية هذه السلسلة من الصفات.

ويفند اكتشاف الحوامل المادية للوراثة الأفكار المثالية عن الأسباب الخرافية لهذه المقدرة في الكائنات العضوية الحية.

وقد ساعد علم الوراثة الحديث على الاقتراب من كشف الوسائل المادية للتغير الفرضي للوراثة. وسوف يكون هذا الاكتشاف مرحلة هامة في معرفة الطبيعة الحية وفي تحويلها.

إن عملية الارتقاء والطفرة التي تحدث في حياة الكائن الحي وتؤثر على تشكل بنيته البيولوجية وشخصيته (في حالة الإنسان) تمثلان جانبين مهمين من عملية التطور. ويمثل الارتقاء التحولات الكمية التي تتراكم خلال ظاهرة ما، بينما تمثل الطفرة تحولا نوعيا أي كيفية سريعا في كثير أو قليل،

مما يدحض التناول الميتافيزيقي الأحادي الجانب
 لمذهب التطور البسيط(وخاصة في فلسفة
 "سبنسر")الذي كان يقصر التطور على
 التحولات الكمية التدريجية،والذي أنكر أن
 التحولات الكمية ذاتها تمهد لحدوث الطفرة
 لاحقاً،عندما تصل إلى الحد الأعظمي في التراكم
 الكمي فيتحول فيه هذا التراكم الكمي إلى تغيير
 أو انتقال إلى التغيرات والتطورات
 الكيفية(النوعية)،وهو المعبر عنه بقانون تحول
 وانتقال التراكمات الكمية إلى تغيرات نوعية.

إن عملية الحركة والتطور تتم بموجب التدرج الكمي (الارتقاء) وانقطاعه (الطفرة). ولا تنشأ الطفرة عن أي شيء تعسفي، وإنما هي عملية موضوعية يتم فيها التغلب على التناقضات القديمة التي تكون قد وصلت إلى درجة الغليان، وتتطور ظاهرة جديدة-تنشأ على هذا الأساس-

بفضل تناقضات جديدة. ومن هنا فإن نظرية التطور الفجائي،

(وخاصة تلك التي أوردها الفيلسوف الإنكليزي المعاصر الاسترالي الاصل "الكسندر صموئيل) تعتبر نظرية غير علمية وخاطئة ولا يمكن تأييدها. فهي تعترف- لفظيا-بظهور الجديد كيفيا في عملية التطور، ولكنها تنكر في التحليل النهائي التطور الذاتي الجدلي والارتقائي التدريجي. ولا تضع هذه النظرية في حسابها مقدمات الطفرة في التحول السابق عليها.

وقد تلقت نظرية التطور والنشوء والارتقاء تشويها آخر قام به الفيلسوف الفرنسي المعاصر "هنري برغسون" صاحب المذهب الحيوي (Vitalism) وفلسفة الحياة (The Philosophy of Life)، وذلك بوضعه تعارضا مطلقا بين الجانب الحي والجانب الحيوي (المتعضي) والجانب المادي الجامد (اللامتعضي)، حيث أنكر بموجبه إمكانية ظهور المادة العضوية من المادة اللاعضوية، ووضع فروق نوعية بينهما لا يمكن تجاوزها، حتى وصل به الأمر إلى اللاعقلانية ووضع قوة معرفية صوفية غامضة سماها "الحدس" بديلا عن العقل في مجال معرفة الواقع الحيوي الذي أطلق عليه تسمية "الواقع الميتافيزيقي الحقيقي" الذي لا يمكن بلوغه بواسطة العقل الذي يعمل على تشويهه محولا إياه إلى مادة ممتدة في المكان، جامدة،

تتقصها الديمومة والصيرورة الزمانية، بل يعرف
بالحدس الذي فهمه برغسون فهما مثاليا.

العقل عند بر غسون قوة معرفية مجالها المادة
الجامدة والممتدة في المكان والتي تقبل الكم
والقياس والأطر العلمية العامة التي يستخلصها
العقل من الواقع المادي بواسطة التجريد النظري
ووسائل المعرفة ومناهجها المنطقية. وغاية هذه
المعرفة المتخصصة الموجودة في فروع العلوم
المختلفة هي خلق وسائل مادية تساعد الإنسان
في تحقيق غاياته العملية النفعية في الحياة
والتكيف مع الطبيعة، فالعقل براغماتي نفعي
بطبعه عند بر غسون وهو ناجح في مجال
التعامل مع المادة الجامدة اللاعضوية وفاشل بل
مشوه للواقع والمجال الحيوي الميتافيزيقي اذا
تدخل فيه وحاول معرفته، لأن هذا الواقع يمتاز
بالحركة والتطور الخلاق والصيرورة والديمومة
التي لا يمكن فهمها إلا بواسطة الحدس، الذي كما
ينجح هنا في حقله الحيوي فهو يفشل في حقل

المادة الجامدة التي لا تعرف إلا بالعقل.

لقد اعتبر برغسون أن المادة الموزعة في المكان والزمان قد صدرت عن مصدر واحد سماه الدفعة الأولى في بدايات النشوء والارتقاء ثم تباعدت عن بعضها منقسمة إلى عضوية وغير عضوية خلال مرحلة تطور طويلة حدثت في غابر الزمان ولا زالت مستمرة وستستمر للأبد طالما هناك مادة والمادة في حركة مستمرة، وهذا القول إلى هنا صحيح ولا غبار عليه، لكن المشكلة أن برغسون قد خالف العلم ذاته عندما قلب الحقيقة رأساً على عقب، معتبراً أن المادة الغير حية قد نشأت عن المادة الحية، والعلم يقول العكس وبما لا شك فيه أن المادة العضوية قد نشأت من المادة الغير عضوية في شروط وظروف معينة توفرت لهذه العملية من ملايين السنين، وهي لا زالت مستمرة في تطورها على الصعيدين الحيوي والغير حيوي طالما توجد

مادة، والمادة لا تفنى وهي في حركة دائمة في المكان والزمان.

يتضح مما تقدم أن برغسون هو فيلسوف ثنوي (ثنائي) بمعنى أنه أقام قسمة ثنائية في فلسفته على الصعيدين: الأنطولوجي (الوجودي) والابستمولوجي (المعرفي)

حيث اعتبر في المستوى الأول أن هناك نوعين من الوجود متمايزين عن بعضهما الأول هو الوجود الحيوي المتعضي والثاني هو الوجود المادي الجامد أي اللامتعضي، واعتبر في المستوى الثاني أن هناك نوعين من المعرفة متمايزتين عن بعضهما الأولى هي المعرفة بالحدس (حدسية) وهي خاصة بمعرفة العالم الحيوي والثانية هي معرفة بالعقل (عقلية) مجالها هو الواقع المادي الجامد أي اللامتعضي.

إن عملية الارتقاء العضوي تشمل النوع كما تشمل الفرد على السواء، لأن عملية التطور تحدث على المستوى الفردي والنوعي للكائنات العضوية (ومنها الإنسان). وارتقاء النوع وارتقاء الفرد في الطبيعة مرتبطان ببعضهما وببينهما علاقة شرطية متبادلة.

ومن ناحية أخرى فإن ارتقاء النوع يقوم على أساس التغيرات الفردية، أي على أساس ارتقاء الفرد.

وقد قدم "دارون" فكرة وحدة الارتقاء النوعي والارتقاء الفردي

وطورها "هيكل" و "ميتشورين" وغيرهما.

يشكل الإنسان في عملية الارتقاء البيولوجي أعلى حلقاتها وأكثر درجاتها تطوراً، ذلك لأن الإنسان موجود اجتماعي يشكل من الناحية البيولوجية أعلى مرحلة في تطور الكائنات

والحيوانات على الأرض، وهو يختلف عن أكثر
الحيوانات بتطور عقله وكلامه المنطوق وقدرته
على العمل الاجتماعي.

وبينما سلوك الحيوان تحدده الغرائز وردود
الأفعال إزاء البيئة، فإن سلوك الإنسان يحدده
مباشرة التفكير والانفعالات والإرادة ودرجة
معرفة القوانين التي تحكم الطبيعة والمجتمع
والإنسان نفسه.

ويعمل العلماء والفلاسفة المثاليون على وضع
تفرقة مطلقة

بين الإنسان وبقية مخلوقات الطبيعة، إذ يعتبرونه
كائناً مميزاً

بصورة مطلقة وفوقياً يعلو على الجميع وعلى
الطبيعة ذاتها بجوهره العقلي أو الذاتي أو
الانفعالي أو الديني.. الخ.

وفي الحقيقة يوجد اختلاف بين الكائن العضوي (الحيوان)

وبين الإنسان ككائن عضوي مميز بعقله وكلامه وعمله ذو الطابع الاجتماعي، لكن هذا الاختلاف هو نتاج قدرة الإنسان على صنع أدوات عمل بهدف التأثير على الطبيعة وتغييرها.

فبينما كيف الحيوان نفسه مع الظروف الطبيعية فإن الإنسان كيف الطبيعة مع نفسه خلال نشاطه الإنتاجي.

والإنسان لا يمكن أن يوجد بمعزل عن الناس الآخرين، فإنه منصهر في ظروف اجتماعية محددة وفي بيئة اجتماعية لا يمكنه العيش بمعزل عنها.

ومن الفلاسفة والعلماء المعاصرين الذين درسوا طبيعة الإنسان وبنيته العقلية والشخصية الإنسانية بطريقة علمية

متماسكة نذكر عالم الطبيعة الروسي
 "بافلوف" مؤسس الدراسات التجريبية
 الموضوعية للنشاط الأعلى عند الحيوانات
 والإنسان، مستخدما منهج الانعكاسات الشرطية
 (المكتسبة) واللاشرطية (الغريزية او الفطرية).
 لقد طور "بافلوف" تعاليم "سيخنوف" عن الطبيعة
 الانعكاسية للنشاط العقلي.
 ولعبت دراسات بافلوف دورا جوهريا في تطوير
 نظرية الانعكاسات الشرطية واللاشرطية، كما
 يعود إليه الفضل باكتشاف النظامين
 الاشاريين، المعبرين عن آلية الانعكاس
 الشرطي (المكتسب) للواقع وبموجبهما تكون
 عند الحيوانات العليا والإنسان المنطقة تحت
 اللحاء هي المنطقة الاولى للعلاقات المعقدة بين
 الكائن العضوي والبيئة، والمنطقة تحت

اللحاء في أقرب حدودها من نصفي الكرة
 المخيين لها انعكاساتها غير الشرطية المعقدة
 التي نشأت عن عوامل قليلة
 غير شرطية، أي عوامل خارجية فطرية. ومن هنا
 يكون التطوير المحدود في البيئة والمنطقة الثانية
 هي نصفي الكرة المخيين،
 بدون الفصوص الجبهية. وهنا ينشأ مبدأ جديد
 للنشاط بواسطة الروابط الشرطية: أي إيجاد
 الإشارة من العوامل غير
 الشرطية القليلة، بالقدر الذي لا يحصى من
 العوامل الأخرى
 التي تتحلل وتتركب، وتجعل في الإمكان إدخال
 قدر أكبر من
 التطور على البيئة نفسها. وهذا هو النظام
 الإشاري الوحيد في

الكائن العضوي الحيواني، وهو النظام الإشاري الأول.

أما الإنسان فلديه نظام إشاري آخر (ثاني) يقع في الفصوص الجبهية للدماغ، ويشير لنشاطه بواسطة الكلمة أي بواسطة الكلام.

ويدخل هذا مبدأ جديد للنشاط العصبي وهو تجريد وتعميم الإشارات التي لا حصر لها من النظام الأول، يعقبه تحليل

وتركيب الإشارات المعممة، وهو مبدأ يجعل بالإمكان تطوير العالم الخارجي بغير حدود.

و الانعكاسات الشرطية والغير شرطية)

Reflexes, Conditioned and Unconditioned) هي ردود الأفعال المتكيفة لدى الانسان

والحيوانات، التي يحددها تنبيه الحواس
المستقبلية (بكسر الباء) ونشاط الجهاز العصبي
المركزي على مستويات مختلفة.
والانعكاسات غير الشرطية ردود أفعال موجبة
فطرية من جانب الكائن العضوي وهي واحدة
في جميع أفراد الأنواع
المعينة. وتتميز بارتباط مستمر بين الفعل الذي
يحدث أثره

على عضو استقبال ما، ورد فعل موجب
معين، مما يكفل تكييف

الكائن للظروف المستقرة نسبيا للحياة.
وتحدث الانعكاسات غير الشرطية-كقاعدة
عامة- بواسطة

الحبل الشوكي والأجزاء العليا من الدماغ. ويطلق
على المجموعات المعقدة من الانعكاسات غير
الشرطية وسلسلة

هذه الانعكاسات اسم الغرائز.

أما الانعكاسات الشرطية فهي ردود أفعال تحدث استجابة

لتبنيه أعضاء الاستقبال، وتكتسب خلال حياة الكائن العضوي.

ومن المدارس المعاصرة في علم النفس والتي اهتمت بدراسة الشخصية نذكر المدرسة السلوكية (Behaviourism) التي أسسها عالم النفس الأمريكي المعاصر "واطسون" (1878-1958) وطورها من بعده تلامذته وأتباعه.

والسلوكية، كإتجاه في علم النفس المعاصر، تقوم من الناحية الفلسفية على الذرائعية (البراغماتية)، وقد تجسدت كنظرية

على أيدي واطسون، الذي استفاد من المعلومات
التجريبية التي توفرت بفضل البحث في سلوك
الحيوانات الذي قام

به "ثورندايك" (1874-1931). وقد شارك
واطسون في نظريته السلوكية "لاشلي" (1890-
1958)، و"فايس" (1879-1931).

وتواصل السلوكية الاتجاه الآلي (الميكانيكي) في
علم النفس

الذي يرجع الظواهر النفسية إلى ردود فعل
الكائن العضوي.

وتوحد السلوكية بين الوعي والسلوك، معتبرة
العلاقة بين

المنبه والاستجابة وحدته الأساسية.

والمعرفة عند السلوكية هي مسألة ردود أفعال
مشروطة

للكائنات العضوية، بما في ذلك الإنسان. وقد تم لاحقاً تجاوز نظرية واطسون السلوكية بعدد من النظريات السلوكية الجديدة، التي عرفت بأنها "شرطية"، وكان أبرز دعائها:

"كلارك هل" و"إدوارد تولمان" و"تدوين جوتري". وتطورت هذه

النظريات السلوكية الجديدة تحت تأثير تعاليم "بافلوف".

وعدلت السلوكية المعاصرة معادلة المنبه والاستجابة بإدخال

ما اسمته "المتغيرات الوسيطة" (مثل المهارة والحافز والقدرة في حال كف والحاجة).

ومن مدارس علم النفس مدرسة التحليل النفسي الفرويدية

التي أسسها فرويد وطورها اتباعه لاحقاً. وهي
 نظرية عامة ومنهج، وفروضها كالتالي: أن ما قبل
 الشعور والذي يسيطر على
 النفس تحتله في أعماق النفس رقابة وهي معادلة
 نفسية

تتشكل تحت تأثير نظام التحريمات الاجتماعية.
 وفي حالات صراعية خاصة تفلت الميول
 اللاشعورية من

الرقابة الاجتماعية وتظهر امام الشعور كالأحلام
 وفلتات اللسان والقلم الأعراض العصابية، أي
 مظاهر الأمراض.. الخ.

ولما كانت النفس أولية بالنسبة للجسد (البدن) فمن
 الضرورة

استكشاف النفس بمناهج ذاتية، وأهمها "منهج
 التداعي الحر".

وهو منهج في تفسير الأحلام وفلتات اللسان
يستخدم للتكهن

بالحقيقة، ذات الطابع الجنسي
الغريزي "الليبيدو" التي يخفيها

المعنى الظاهر لمظاهر اللاشعور.

وهناك اتجاهات مختلفة في علم النفس الترابطي
يجمعها استخدام مبدأ التداعي، وهي على

نوعين: مثالية تنطلق من فلسفة هيوم الوضعية

الظواهرية التي تحدثت عن "عناقيد الانطباعات"

و ماخ، ويمثلها هربرت في التصورات الذاتية

للنفس، ومادية تنطلق من فلسفة هوبز و

لوك، ويمثلها هارتلي

و بريستلي اللذان فسرا النفس انطلاقا من ذبذبات

المخ.

ويوجد في علم النفس الترابطي اتجاه معاصر
يجمع آراء التيارين المادي والمثالي ويمثله
ستيوارت ميل و بين، وينطلق من الآلية الذرية
النفسية في علم النفس. ويتمثل استمرار علم
النفس الترابطي حالياً بالمدرسة السلوكية التي
أسسها واطسون وهي تغالي في استخدام المذهب
الآلي الميكانيكي في علم النفس.

ومن أهم مدارس علم النفس ما يعرف بعلم
النفس الجشطالتي أو الجشطالتيّة (Gestalt or
Gestaltisme) وهي مشتقة من الألمانية
وتعني صورة أو شكل. وهو اتجاه مثالي في علم
النفس، وكان أول من استخدم مصطلح علم نفس
جشطالتي

كريستيان فون اهرن فلز (1859-1932)
(وأبرز شراحه ماكس

فيرتهايمر و فولفجانج كوهلر و كورت
 كوفكا. ويقوم هذا العلم
 على اساس افكار هوسرل و أرنست ماخ، وهو
 على النقيض
 من علم النفس الترابطي، اذ يعتبر ان ما يصفه
 بالبناءات النفسية "كليات
 منظمة" أو "جشطلت"، وليست الاحاسيس،
 أولية وأساسية في وظائف العقل. ويخضع
 تكوينها، طبقا لعلم النفس الجشطالتي للملكات
 الغريزية للأفراد، التي تمكنها من خلق أشكال
 بسيطة ومتعامدة ومقفلة أو متكاملة. وتفترض هذه
 النظرية انعزال الفرد عن بيئته وعن نشاطه
 العملي.
 في النهاية فإن الجشطلتيين يعززون البناءات
 النفسية كلها إلى

قوانين ذاتية داخلية وهم بهذا يلتزمون وجهة النظر المثالية.

وهناك مناهج أخرى في علم النفس المعاصر ومنها المنهج البنيوي أو التكويني الذي طبقه في دراسته التطورية التكوينية أو التركيبية على النفس والشخصية وخاصة في مراحل تطورها النفسي والعقلي والمعرفي والسلوكي منذ الطفولة الأولى وحتى الشيخوخة عالم النفس والمنطقي والفيلسوف السويسري "جان بياجيه" (1856-.....?).

لقد وضع "بياجييه" اعتمادا على المعلومات التجريبية نظرية

تكوين العقل، التي تعتبر العقل نسقا (بنية) من العمليات أي الأفعال الداخلية للذات المشتقة من أفعال الموضوعات الخارجية، والتي تشكل وحدة بنيانية معينة.

وقد تركبت أفكار بياجيه السيكلوجية والمنطقية
في نظريته

في "المعرفة التكوينية" وفق المنهج
التكويني، وهو مفهوم

معرفي نظري يقوم على أساس تعادل تكويني
نقدي تاريخي لتحليل المعرفة.

ويعتبر بياجيه أن تطور معرفة الذات للموضوع
أكثر وأكثر يجعلها أكثر استقراراً وثباتاً في
ظروف التجربة المتغيرة.

والمنهج البنائي (البنوي) والتكوين عند جان
بياجيه، هو منهج تكويني تركيبي تاريخي (بعكس
التحليلي)، ينظر إلى العقل والشخصية والمعرفة
كبنية متطورة تاريخياً، تبدأ من مراحل الطفولة
مروراً بالشباب وانتهاء بالنضج والكهولة، ولكل
مرحلة سماتها ولكنها تبقى متصلة بما قبلها وما
بعدها من مراحل في

وحدة الهوية في الشخصية التي يشكل تطورها
 سيرورة متواصلة وتصاعدية لا انقطاع فيها(لا
 يوجد قطيعة ابستمولوجية)،وبهذا يختلف بياجيه
 عن بقية فلاسفة
 "البنوية".

وطبقا للمنهج التكويني عند بياجيه،علينا أن
 نحدد: 1-الأحوال الأولية للتطور، 2-المراحل
 الرئيسية للتطور، 3-الاتجاه الأساسي أو الخط
 الأساسي للتطور. والغرض منه إثبات الصلات
 بين الظواهر في الزمن وفحص التحولات من
 الأشكال الأدنى إلى الأشكال الأعلى. ويتفوق
 المنهج التكويني
 (التركيبي) على التحليل التجريبي لأنه يسير في
 خط مواز للتطور الفعلي،متخذا منه معيار
 لسلامة الأفكار الناشئة.

ومما تقدم نرى بأننا تناولنا جوانب هامة في طبيعة الشخصية وماهيتها (جوهرها) من خلال موضوعات علم النفس العام ونظرياته ومدارسه ومناهجه وتياراته المتنوعة،

حيث تطرقنا إلى البعض منها، وكذلك من خلال فروع علم النفس المتعددة، ومنها علم نفس المجتمع وعلم نفس الطفل وعلم النفس التربوي والأخلاقي والديني والجشطاتي والتكويني والتحليلي (الفرويدي) والسلوكي، والانعكاسي التجريبي الشرطي واللاشرطي، كما تناولنا نظريات نفسية

تتدرج ضمن نظريات الأنماط والسمات، وأخرى ضمن النظريات

النمائية والتكوينية: ومنها نظرية التحليل النفسي الفرويدية والنظرية التكوينية عند "بياجيه" والسلوكية عند واطسون. الخ.

ومن الفلسفات التي اهتمت بالشخصية كموجود إنساني "معيش" وكوعي ذاتي ومحايث نذكر الوضعية والظواهرية الفينومينولوجية والفلسفة الوجودية و الذرائعية (البرجماتية).

ونخص بالذكر هنا الفلسفة الوجودية التي اتجهت اتجاهها حدسياً لا عقلانياً يعتمد المنهج الظواهري في تفسير الشخصية كوجود متفرد "موجود لأجل ذاته" في مواجهة الذات الأخرى وعالم الأشياء الذي يمثل " الوجود في ذاته"، بعد ان افرغته (أي المنهج الظواهري عند هوسرل) من مضمونه العقلي.

ترى الفلسفة الوجودية ان حياة الشخص ووجوده
 الأصيل والحر بعيداً عن عالم الثرثرة والوجود
 المبتذل مع الآخرين لا يتحقق إلى بالانعزال عن
 الوجود للشخص الآخر، أي عن المجتمع
 والذوات الأخرى، لأن مجرد وجودهم بالقرب
 من الشخص هو سلب لشخصيته وحد من
 حريته، بموجب الفلسفة الوجودية، التي تطالب
 الفرد ان يضع ذاته في موقف حدي بينه وبين
 الخوف من الموت فيصل من خلال فهم الموت
 ، عبر مقولات الوجودية من عبث وهم وقلق
 وقرف من الحياة.. الخ، يصل إلى حريته
 ومسؤوليته عن افعاله وتحقيق وجوده كمشروع
 نحو المستقبل فيه الوجود سابق على
 الماهية. وبالمطلق الفلسفة الوجودية عند سارتر و
 هيدغر و ياسبرز وآخرين تدعو إلى الفردية
 المتطرفة في الشخصية'

وخاصة عند الفيلسوف الوجودي الفرنسي
المعاصر "سارتر"

الذي دعا إلى نبذ علاقة الحب بين البشر، لأنها
تسلب المحب حريته وتجعل المحبوب وسيلة
لتحقيق غايات المحب،

لذلك قرر سارتر ان الحب، بل حتى مجرد وجود
الشخص الآخر بجانبك يمثل بالنسبة لك الجحيم
بعد ذاته.

هكذا فلسفة لاعقلانية هي مفرطة ومتطرفة في
الدعوة إلى النزعة الفردية في العلاقات بين
البشر وتقود إلى الانانية والأناية والكراهية
والبغض، لذلك فهي مرفوضة.

مما تقدم نرى أن الشخصية الإنسانية بالمجمل
تحتوي على جانبين الأول عام ومشترك مع بقية
الناس والثاني ما تمتلكه

من صفات خاصة تميزها عن الآخرين، منها ما هو قادم من الوراثة وما هو قادم من البيئة أو من الاثنين معاً.

ويلعب المزاج دوراً هاماً في تكوين الشخصية وهو على أنواع: فالنمو المتوازن لشخصية يتطابق مع المزاج الدموي وسماته هي الحركات السريعة الاثارة ولكن السهلة والمتغيرة والنشطة، أما النمط القوي المتوازن والساكن يطابق المزاج

البلغمي، الذي يتميز باستقرار المشاعر والحركات الهادئة،

والنمط القوي الغير متوازن يطابق المزاج الصفراوي وسماته المميزة هي الانفعالات الفجائية التغير والحركات العنيفة،

والنمط الضعيف يطابق المزاج السوداوي
بمشاعره العميقة المستمرة والمستترة وظهورها
كتعبير خارجي قليل.

انتهت المحاضرة الأولى. وسيكون عنوان
محاضرتنا القادمة

الثانية: "العوامل المتفاعلة في تشكيل
الشخصية". وتشمل:

الوراثة والبيئة والوراثة والشخصية والبيئة
والشخصية.

دمتم بصحة جيدة وتحصيل علمي مميز.....!!